توظيف التراث في رواية "موت صغير"

Employing patrimony in “Small Death” novel

أ.سمية تيشة*

جامعة قطر- دولة قطر، Sooomy_212@hotmail.com

تاريخ الارسال2023/03/01 تاريخ القبول 2023/05/19 تاريخ النشر2023/06/10

ملخص البحث بالعربية

يشغل التراث مكانة مهمة في الثقافة العربية الإسلامية، فهو يُعد بمنزلة الذاكرة الشعورية واللاشعورية التي يخزنها الإنسان العربي، والمعرفة التي توجه مساره لمعرفة الحاضر وما هو قائم، أو ما سيقوم عليه المستقبل، الأمر الذي دفع ببعض الروائيين العرب إلى توظيف التراث في الرواية بهدف توليد دلالات جديدة في التجربة الروائية، وإعادة خلق الإبداع، فضلًا عن توسيع دائرة الفكر حول روح التاريخ وأبعاد التجربة الإنسانية. وتتجه هذه الدراسة إلى التعرف على مستوى توظيف التراث في رواية "موت صغير" للكاتب السعودي محمد علوان، الذي غاص في التراث العربي، واستطاع أن يرصد التنوع الحضاري والثقافي لحقبة زمنية عاش فيها فيلسوف الصوفية وشيخها "محي الدين بن عربي"، إلى جانب استنهاض المسكوت عنه من حيث التراث الفكري والحضاري والديني والثقافي وغير ذلك.

الكلمات المفتاحية توظيف، التراث، التاريخ، التراث الفكري، التصوف، رواية موت صغير.

Summary:

Patrimony occupies an important place in Arab-Islamic culture. It promises the status of the poetic and unconscious memory of the Arab human being. The knowledge that guides his path to know the present and what exists, or what the future will be. This led some Arab novelists to employ patrimony in the novel with the aim of generating new connotations in the fiction experiment and recreating creativity, as well as expanding the circle of thought about the spirit of history and the dimensions of human experience. This study seeks to identify the level of Employing heritage in the novel "A Small Death" by Saudi writer Mohammed Alwan, who dived into Arab heritage. He was able to monitor the cultural and cultural diversity of a time when a Sufi philosopher and her elder "Muhyiddin Ben Arabi", as well as to deploy his silent intellectual, civilizational, religious, cultural and other heritage.

Keywords: Employing, patrimony ،History، Intellectual Heritage، Mysticism, Small Death Novel.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

يشكل التراث عنصرًا مهمًا في الثقافة العربية الإسلامية، لما فيه من امتدادًا لحاضر هذه الثقافة ومستقبلها، وبوصفه الذاكرة الشعورية واللاشعورية التي يخزنها الإنسان العربي، والمعرفة التي توجه مسار المثقف ذهنيًا، وثقافيًا، وحضاريًا، وفنيًا لمعرفة الحاضر وما هو قائم، أو ما سيقوم عليه المستقبل.

فمع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، برزت المحاولات الروائية الأولى عند عودة الكتّاب العرب من البلاد الأوروبية، في كتابة وتأليف روايات مختلفة، فعاد البعض منهم إلى الماضي بهدف إحيائه وبعثه من جديد تمجيدًا وتنويهًا للتراث، وذلك عبر استحضاره في أعمالهم الأدبية لا سيما الروائية، ولعل أبرز بواعث توظيف التراث في الرواية العربية، حرب حزيران 1967، وما تمخض عنها، من نتائج سلبية إلى خيبة أمل كبيرة، فدفع بمثقفين العرب العودة إلى الجذور للوقوف على الخصائص المميزة، والهويّة الخاصة، إلى جانب طبيعة العلاقة بين الرواية العربية والرواية الغربية التي يُعد أحد أهم أسباب العودة إلى قراءة التراث، والتأسيس عليه، والغوص في البيئة المحلية.

فالعودة إلى الماضي وفهمه جيدًا، واستيعابه بشكل متأن وواع، وقراءته قراءة سياقية وظيفية، يُسهم في فهم الحاضر، وتنويره بطريقة إيجابية بناءة وهادفة، وهذا ما يؤكد عليه حسن حنفي بقوله:" الحديث عن القديم يمكن من رؤية العصر فيه، وكلما أوغل الباحث في القديم، وفك رموزه، وحل طلاسمه،أمكن رؤية العصر، والقضاء على المعوقات في القديم إلى الأبد، وإبراز مواطن القوة والأصالة لتأسيس نهضتنا المعاصرة، ولما كان التراث يشير إلى الماضي، والتجديد يشير إلى الحاضر، فإن قضية التراث والتجديد هي قضية التجانس في الزمان، وربط الماضي بالحاضر، وإيجاد وحدة التاريخ"[1]، ذلك أن الماضي هو امتداد للحاضر، ومن الضروري استحضار القديم والتعمق فيه لرؤية العصر وتأسيس النهضة المعاصرة.

ولأن الهدف من توظيف التراث في الرواية؛ هو توليد دلالات جديدة في التجربة الروائية، وإعادة خلق الإبداع، وتوسيع دائرة الفكر حول روح التاريخ وأبعاد التجربة الإنسانية، جاءت هذه الدراسة للتعرف على مستوى توظيف التراث لدى الكاتب السعودي محمد علوان في روايته "موت صغير" الذي غاص في التراث العربي، واستطاع أن يرصد التنوع الحضاري والثقافي لحقبة زمنية عاش فيها فيلسوف الصوفية وشيخها "محيي الدين بن عربي"، إلى جانب استنهاض المسكوت عنه من حيث التراث الفكري والحضاري والديني والثقافي وغير ذلك، وتجدر الإشارة إلى أن رواية "موت صغير" حظيت بجائزة "البوكر العربية" في دورتها العاشرة.

و"التراث" في المعاجم العربية جاء بمعنى الإرث والميراث، ففي معجم لسان العرب التراث هو :" الوِرث، الوَرث، الإراث، الوراث، والتراث واحد، والميراث أصله موراث انقلبت الواو ياء كسر ما قبلها والتراث أصل التاء فيه واو"، و" التراث والأرض والميراث: ماورث، وقيل :الورث والميراث في المال، الإرث في الحسب، والتراث ما يخلقه الرجل لورثته، والتاء فيه بدل الواو"[2]، وفي القاموس المحيط يحمل ذات المعنى: "الميراث، والأصل، والأمر القديم توارثه الآخر عن الأول، والرماد، والبقية من كل شيء"[3]،

كما ورد لفظة "التراث" مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى، " *وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا*"[4]، وجاء في *تفسير الطبري :"* وتأكلون أيها الناس الميراث أكلا لما، يعني: أكلًا شديدًا لا تتركون منه شيئًا، وهو من قولهم: لممتُ ما على الخِوانِ أجمع، فأنا ألمهُ لما: إذا أكلت ما عليه فأتيت على جميعه"[5]. أي بمعنى الميراث.

وما يتبين أن "التراث" في المعاجم العربية القديمة جاء بمعنى الإرث أو الميراث الذي يتركه الأب لأبنائه سواء كان مادياً أو معنوياً، وهو نصيب كل فرد من تركة الميت، أي ما يتركه السلف للخلف من مال وحسب ونسب.

انتشر استعمال لفظ "التراث" في القرن العشرين، في دلالة على ما ورثه العرب عن أسلافهم من حضارة، وقد اختلف اسم "التراث" في دلالته الخاصة عن اسمين آخرين مشتقين من الفعل (وَرِثَ) هما "الإرث" و "الميراث"، واللذان يشيران إلى نصيب كل فرد من تركة الميت، ويقتضي فيهما وفاة الأب وحلول الابن محله، إلا أن "التراث" في دلالته الحديثة يشير إلى الإرث الفكري والثقافي الذي وصلنا من آبائنا وأسلافنا على مر العصور والذي مايزال فاعلاً في ثقافتنا السائدة، فإذا كان الإرث أو الميراث المادي يتطلَّب موت الأب أولاً، فإن التراث الفكري والحضاري يعني حضور الأب في الابن، واستمرار الماضي في الحاضر،"التراث تراكم حضاري وثقافي ينتقل عبر الأجيال والقرون عن طريق اللغة والمحاكاة والتقليد، ويشمل العناصر المعنوية من أفكار ومعتقدات وسلوك، والعناصر المادية، كالصناعات والحرف والآثار"[6]، فالتراث إذن ركيزة أساسية من ركائز الهُويّة الحضارية والثقافية، يحمل عناصر متجددة ومتعاقبة، وهو استلهام للماضي واستحضار الحاضر، واستشراف المستقبل.

ويحمل "التراث" دلالة أوسع مفهوما من المعنى اللغوي ، إذ يرى عبد العزيز التويجري أن "كل ما وصل إلينا مكتوبا في علم من العلوم، أو محسوسًا في فن من الفنون، مما أنتجه الفكر والعمل في التاريخ الإنساني عبر العصور"[7]، فيما يذهب عبد الحليم عويس في تعريف للتراث إلى أنه الوعاء الذي يضم جوانب المسيرة الفكرية، والحركة العملية التي تتضمَّن الفعل الحضاري والإبداعات الفكرية والفنية والتطبيقية[8]، في دلالة واضحة إلى أن التراث سيرورة فكرية وثقافية وحضارية تشمل كل ما وصل إلينا من علوم ومعارف وفنون أنتجها آبائنا وأسلافنا على مر العصور، وأن لا يمكن حصره فيما يرثه الأبناء عن الآباء بعد وفاتهم، بل هو أوسع وأشمل في حفظ الهويّة والموروثات ونقلها من جيل إلى جيل، فضلاً عن حفظ التاريخ من الاندثار، أو تحريفه، أو ما شابه ذلك.

التراث في رواية موت صغير:

يحتل "التراث" في رواية موت صغير لمحمد علوان موقعاً استراتيجيًا مهمًا، في بناء الثقافة الحديثة والمعاصرة معرفياً، وفكرياً، وتصورياً، إذ استطاع علوان أن يربط الماضي بالحاضر، وأن يكشف أسرار التراث العربي ومكنوناته، من خلال سيرة متخيلة لواحدة من أكثر الشخصيات الإشكالية في التراث العربي والإسلامي وهو الشيخ "محيي الدين بن عربي".

ويعَدُّ ابن عربي (ت: 638هـ) أحد أبرز المفكرين المسلمين الذين حظيت أعمالهم بالدراسة والترجمة في مختلف أنحاء العالم، إذ برع في علم التصوف، وكتب فيه المئات من الكتب والرسائل حتى بدا له تأثير كبير وواضح في التصوف الإسلامي ليس في زمنه فقط بل إلى الآن، وهو سليل أسرة عريقة في العلم والتقوى، عراقتها في الحروب والفتوحات، كان

جده الأعلى عبد الله الحاتمي أحد قادة الحروب والفتوحات، وكان جده الأدنى أحد قضاة الأندلس وعلمائها، وأبوه كان علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف.

وفي رواية "موت صغير" يطرح التراث العربي نفسه بإلحاح على القارئ، فسيرة "ابن عربي" لم تكن سيرته فحسب، بل سيرة الأندلس والحجاز والشام أيضًا في وقتٍ مضى، إذ تداخلت شخصيات عدة عرفناها كابن رشد وابن الطفيل وغيرهم، ما جعل القارئ يشعر بمودة وأُلفة لكل ما عرفه سابقًا عن تلك الحقبة، فالرواية تكشف أسرار التراث العربي ومكنوناته، وتضع المهمشين في الصدارة، وهو ما يمكن عدّه ذكاء من الكاتب بتوظيف شخصية تاريخية كانت غائبة عن الفكر العربي، وواستحضار التراث العربي من خلال هذه الشخصية التي تعد من أشهر الشخصيات وأكثرها جدلاً في عالم التصوف.

ترى مها بنسعيد أن علوان قدم نصًا تراثيًا مركزيًا من خلال سيرة المخطوط، الذي ينتقل عبر أزمنة مختلفة ليكون شاهدًا على انهيار المجتمع الإسلامي، فتقول: "تمثل الرواية سيرة ابن عربي المتخيلة من طرف الروائي، الذي أبحر ببراعة ماهرة في تاريخه السياسي والثقافي، الذي طالما قرأ خارج مداره الاجتماعي، فبحث عن إشراقاته الذاتية، فأجاد الغوص، وقدم لنا نصا تراثيا مركزيا من خلال تقديم الروائي لسيرة المخطوط، الذي كان ينقل عبر أزمنه مختلفة من بلد لآخر، ليشهد على انهيار المجتمع الإسلامي، ويؤكد كذلك على أن الموت الصغير يمكن أن يتحول إلى موت كبير بكل سلبياته"[9]، ذلك أن رواية "موت صغير " تتناول سيرة حياة مزدحمة بالرحيل والسفر من الأندلس غربًا وحتى آذربيجان شرقًا، مرورًا بالمغرب ومصر والحجاز والشام والعراق وتركيا، يعيش خلالها البطل "محيي الدين بن عربي"، فيلسوف الصوفيّة وشيخها، تجربة صوفية عميقة يحملها بين جنبات روحه القلقة ليؤدي رسالته في ظل دول وأحداث متخيّلة، مارًا بمدن عديدة وأشخاص كثر وحروب لا تذر ومشاعر مضطربة، بحثاً عن أوتاده الأربعة الذين يثبتون قلبه؟

1-قالب السرد

يعود محمد علوان في روايته "موت صغير" إلى الرواية التاريخية، وإلى العصر الأندلسي تحديداً، ليقيم صرحاً روائياً نابضاً بالروح والحركة، باعتماده سيرة أحد أئمة الحب والتصوف الشيخ "محيي الدين بن عربي" وسبر أغوار هذه الشخصية، من خلال *اثني* عشر جزءًا، أسماها الكاتب "سِفْر"، فتقوم الرواية على مسارين سرديين في زمنين مختلفين كتبها علوان بتكنيك سردي ليبحر بصورة مذهلة في أرجائهما، المسار الأول يروي حكاية انتقال مخطوطة سيرة ابن عربي منذ عام 610هـ/1212م، وحتى وصولها بين أيدينا عام 1433هـ/2012م، وما صاحب ذلك حروب وصراعات وابتلاءات في التاريخ الإسلامي، فيقول:" "لم يبقى في جسدي عضو إلا وأن واشتكى وأنا على سيري لا أتوقف، تتلقني الطريق بعد الطريق، يصعد بي التل ويهبط بي الوادي، وأمر بالناس في القرى والحواضر، وبالوحش في الفقر والخلوات"[10]، أما المسار الثاني جاء فيه سيرة ابن عربي منذ ولادته وحتى وفاته، وما مر به ابتلاءات وصعاب بسبب رحلتهِ الشاقة من غرب البلاد (في الأندلس حيث ولادته وشبابه) إلى شرقها (دمشق)، مرورًا بالقاهرة ومكة وغيرها من حواضر العالم الإسلامي، للبحث عن "أوتاده" الأربعة، حتى وفاته، مختماً حكايته بقول "سقطت على وجهي، تقافز الدجاج من حولي هلعاً، تعلق نظري بورقة صفراء لم أجرفها. مت"[11].

لقد كان علوان جريئاً في العودة إلى سيرة الشيخ "محيي الدين بن عربي" ليكون بطلاً لروايته والشخصية التي تتمحور حولها روايته، فشخصية ابن عربي من الشخصيات الجدلية في تراثنا العربي، فمنهم من اتهمه بأنه كان يروج للباطل والضلال، ومنهم من اتهمه بالكفر والجهل والترويج للباطل، وفي ذلك قال أبي حيان الأندلسي: " ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من أقر بالإسلام ظاهرا، وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة: كالحلاج والشعوذي وابن أحلى وابن عربي المقيم بدمشق، وابن الفارض، وأتباع هؤلاء كابن سبعين –وعد جماعة ثم قال: وإنما سردت هؤلاء نصحا لدين الله، يعلم الله ذلك، وشفقة على ضعفاء المسلمين، وليحذروا، فهم شر من الفلاسفة الذين يكذبون الله ورسله، ويقولون بقدم العالم وينكرون البعث، وقد أولع جهلة ممن ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء، وادعائهم أنهم صفوة الله"[12]، ذلك أن علوان حاول أن يبقى في الدائرة الصعبة، باختيارِه شخصية ابن عربي، هذه الشخصية التي كثرت حولها الجدل والأقاويل والاتهامات، إذ سعى إلى الكشف عن الجزء الآخر (الجزء الخفي) في سيرة الشيخ محيي الدين بن عربي ليقدم للقارئ العربي أسرار التراث العربي ومكنوناته من خلال أسفاره.

وبالعودة للقالب السردي جاء في الرواية :"وجلستُ أكتب ما لا يملك كتابته غيري ولا يعرف شأنه مثلي: سيرة الولي الذي اختاره الله لما اختاره وأمره بما أمره، كتبتها تحت ضوء المصباح الذي لا يكذب، حتى إذ اختلف الناس في أمري وجدوا ما يحتجون به في شأني"[13]، في دلالة واضحة إلى التقنية السردية التي يملكها علوان، ونجاحه في استكشاف طبيعة ابن عربي ساردًا، وبيان خصائص أسلوبه السردي، فابن عربي سارد بضمير المتكلم وهو شكل سردي يتبناه القليل من الروائيين، فلم يكتف بعرض سيرة ابن عربي بل :"بل حمل المستوى الآخر من السرد لقطات مكثفة وذكية لرحلة مأساوية أخرى انتقلت فيها المخطوطة من أذربيجان عام 610هـ، حتى استقرت في بيروت عام 2012 في الأجزاء التي عنونها بالمخطوطة وزمانه ومكانه، واختار لكل مرحلة من مراحلها إحدى المصائب أو الكوارث التي مني بها العالم الإسلامي في تلك البقعة التي كان المخطوط فيها، حتى يضطر المحتفظ به أن ينقله على مكان آخر وحتى تصل إلى أيدينا في النهاية"[14].

2– اللغة:

وظف علوان في روايته "موت صغير" لغة تراثية تقليدية؛ تروي تفاصيل حياة متخيلة، متلائمة مع حالة التصوف، بعيداً عن الخوض في تفاصيل الأقوال والعبارات الصوفية، وقد تميزت ألفاظ الرواية والمصطلحات والحوار بالدقة والوضوح بما يتناسب الفترة الزمنية التي تم رصدها، إذ نجح علوان التعبير باحتراف عن لغة عصره ومفرداته، من حيث الطعام الذي كانوا يتناولونه، والأدوات التي كانوا يستعملونها، والدواب التي يمشون عليها، وحتى الملابس التي كانوا يرتدونها في تلك الحقبة "فإذا لبس مقطعة التونسي، واحتزم بحزام من الخزّ، ووضع فوقها جبّة من الديباج، واعتمر عمامة، علمنا أنه يذهب فيه إلى عمله في قصر الملك محمد بن مردنيش، أما إذا اعتمر قلنسوة، أو اتشح بطيلسان، فنعلم أنه ذاهب لشأن آخر غير شؤون البلاط يزور أحداً أو يقضي حاجة في السوق، أما إذ لبس البرنس البربري بلا حزام وطيلساناً بلا قلنسوة فالأغلب أنه سيذهب إلى جامع مرسية ليلقي درساً أو يحدث حديثاً"[15]، والطيلسان فُسر بكساء مدّور أخضر،

يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، ويُلقى على الكتف[16]، أما القَلنسوة هي قبعة أو غطاء للرأس بمختلف الأشكال والألوان، وتشير أيضًا إلى الطاقية التي تضع تحت العمامة[17].

وتطرق علوان من خلال لغتة الرصينة التي تجعل القارئ يعيش تلك الحقبة من الزمن لأسماء الطعام والمؤكولات في غرناطة: "خادمك سلوم ياسيدتي يطبخ المخلل الإشبيلي والطنجير الفاسي والدجاج المدهون، والجلابية ووثفة الأكباش وكل المخثرات والمخمرات والمركاس "[18]، فيما وقف على أنواع الأسلحة القديمة التي كانت تستخدم في الحروب، "فالسيوف في كومة، والخناجر والسكاكين في كومة، والرماح في كومة، والنبل في كومة وأقواسها في كومة أخرى"[19]، إلى جانب التطرق إلى وسائل آنذاك كالحصان والجمل، ونصب (الهودج) وهو أشبه بالخيمة المصغرة توضع على ظهر الجمل تختلي به النساء والأطفال لتحميهم من البرد شتاءً وحرارة الشمس صيفًا.

ولم تخلُ الرواية من الوصف والحديث عن بعض العملات كعملة المرنديش وعملة الموحدين، وجرة الماء التي كانت تستعمل قديمًا وتوضع في ساحة الدار عند الشباك لتظل باردة لأهل البيت، ووسيلة الترفيه التي كانت تمارس وكان يتكفل بها الحكاؤون يجولون في مدينة أشبيلية ترفيها عن الناس، وأيضاً طريقة جمع القمامة قديما في قرطبة على عربات تجرها الثيران تطوف بالأزقة، وتعليم الصغار أصول الدين على أيدي شيوخ الدين في حلقة التأويل التي كانوا يعقدونها بعد منتصف الليل، وفضول ابن عربي في حب القراءة، وطلب العلم، وانتقاله من ورّاق إلى ورّاق "لم يبق دكان إلا دخلته باستثناء الوراقين الذين يبيعون كتباً قشتالية ويونانية لا أفهم حرفها، وعند هؤلاء يجلس تراجمة يترجمون كل كتاب بعشر وزنه فضة إلى العربية،وبنصف العشر إلى القشتالية"[20]، وهي ما جعلت رواية موت صغير تتميز عن الروايات العربية بأنها: "تمتلك منظورها التعبيري الخاص، ولغتها التراثية السلسة المشبعة بالفكر الصوفي الذي يمثله ابن عربي من خلال منجزه الكبير، مع توظيف للتاريخ الإسلامي والأوضاع المضطربة فيه، من الأندلس إلى مكة إلى العراق والشام وهكذا"[21]

مما سبق يتبين؛ أن لغة الرواية اتسمت بالرصانة والوضوح والثراء المعرفي والفكري، إلى جانب القدرة على التعبير والوصف دون افتعال أو مبالغة، إذ نجح علوان في الانتقال الديناميكي بين العصور بلغة تراثية تقليدية رصينة، وأسلوباً يقرب القارئ من الأحداث، والولوج فيها وهو قابع في مكانه.

3-التصوف:

شكلت الثقافة الصوفية مساحة واسعة من الرواية وفلسفتها، التي كان واحداً من أعلامها المهمين وهو الشيخ الصوفي "محيي الدين بن عربي"، إذ تطلعنا الرواية على الكثير مما يتعلق بتاريخ وحيوات المتصوفة، وعلومهم، ومعارفهم، وسلوكهم، وحتى طقوسهم ورحلاتهم وما يميز أفكارهم، مما يمكن أن نعد الرواية قاموسا لتاريخ التصوف وحياة المتصوفة، لما تحمل في طياتها الكثير من مصطلحات جديدة على القارئ كالأوتاد، والمريد، والجذب، والخلوة، والحال والاتحاد، والحلول، والحب الإلهي، والتأويل، كما وركز علوان على الكشف والرؤى، وعلى السباحة والرماية، إذ انطلق من "السباحة إلى الكشف الذي هو الركن الأساسي في تصوف ابن عربي بالتعاون من الرؤى والمنامات، إذ يقول: إن السباحة هي العوم في ملكوت الله، والرماية هو قول الحق في موقف الخوف، وركوب الخيل هو السفر في طلب العلم، أخذ أبي الظاهر

وكشف الله لي الباطن"[22]، ذلك أن السباحة والرماية وركوب الخيل من الرياضات التي أسهمت بشكل كبير في تصوف ابن عربي والسفر في عالم الزهد وطلب العلم.

يقول الشيخ أحمد بن زرّوق الفاسي: "كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف، وأمسى ذلك بالحقيقة خمس: أولها قول من قال: (الصوفة) لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له، الثاني أنه من (صوفة القفا) للينها، فالصوفي هيّن ليّن كهي، الثالث أنه من (الصفة) إذ جملته اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة، الرابع أنه من الصفاء، وصحح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله :

تنازل الناس في الصوفي واختلفوا جهلاً وظنوه مشتقا من الصوف.

ولست أنحل هذا الاسم غير فتىً صافي فصوفي حتى سمي الصوفي "[23].

وتعد رحلات ابن عربي وبحثه من أوتاده الأربعة التي أخبرته بها فاطمة بنت المثنى المتصوفة التي لقنته الفكر الصوفي، محوراً مركزياً من حياته،أي على معلميه بحسب التعبير الصوفي، "طهر قلبك" جملة افتتاحية أوصت بها فاطمة تلك السيدة التي ربّته وأحبّها، فكان لها ابنًا وتلميذًا، كما وكان إسحاق يخاطبه قائلاً "يا محيي. أنت لا تجد الوتد ،هو الذي يجدك"[24]، في حين تشير عليه نظام عين الشمس ابنة زاهر الأصفهاني الذي التقاها في مكة المكرمة ووقع بحبها سرا، إلا أنها رفضت الاقتران به، لأنها رأت أنها وتده الثالث، "والأوتاد يتزوجون الأرض يا حبيبي"،"وفي ملطية وتدك الرابع والأخير، فأقبل عليه يثبت قلبك"[25]، وهو بذلك يضع أسس لهيكل المجتمع التصوفي ومرجعيته.

4- القرآن الكريم:

للقرآن الكريم وآياته حضورًا كبيرًا في رواية "موت صغير"، فتوظيف علوان للمعجم القرآني مستقلاً عن معاني التصوف، يشكل انفراداً وتميزاً في الكتابة الروائية، وينطلق من قصة ابن عربي مع المرض الذي أصيب في شبابه، وفي أثناء شدة الحمى يرأى في المنام أنَّه محاط بعدد ضخم من قوى الشر، مسلحين يريدون الفتك به، ويرأى شخصاً جميلاً قوياً مشرق الوجه، هجم على هذه الأرواح الشريرة ففرقها ولم يبق منها أي أثر فسأله محيي الدين ابن عربي":من أنت ؟ "فقال له الرجل "أنا سورة يس"، وعلى أثر هذا استيقظ فرأى والده جالساً إلى وسادته يتلو عند رأسه سورة يس، ثم لم يلبث أن شفي من مرضه، وأتته فكرة أنَّه معد للحياة الروحية وآمن بوجوب سيره فيها إلى نهايتها، ويقول في ذلك: "قرأت هذه السورة في قلبي وكأني لم أقرأها من قبل قط بالقراءات السبع وأعرف كل حركة وشدة وغنة وإظهار وإقلاب فيها، ولكنها هذه المرة لم تكن سورة فحسب بل كانت رسالة الله إلى قلبي ومشكاة الهدى في الطريق"[26]، ثم "رحلت الحمى وبقيت يس في صدري"[27]، في دلالة على أهمية سورة يس وعظمتها.

ويواصل "ابن عربي" حديثه فيقول :"قدموني بعد ذلك للإمامة فصليت، وقرأت (**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**) في الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية قرأت آية (**مُدْهَامَّتَانِ**) "[28]، ثم يذكر حكاية المنادي الذي كان يحمل رسالة أمير المؤمنين للعلج ألفونسو :" تأخر المنادي في الكلام ليزيد من تلهفهم لسماع الرد، ثم أغمض عينيه وقرأ من سورة النمل :" **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**"[29].

وفي موضع آخر يذكر "ابن عربي" كيف كانت تلاوة القرآن مواساة له في وفاة ابنته زينب فيقول:" أغمض عينيه كعادته عندما يتلو القرآن، فأطرقت وأغمضت بدوري لأسمع فتلا عليّ: ﴿**لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ۗ﴾"[30]، ذلك أن القرآن الكريم يحظى بمنزلة عظيمة في نفوس البشر، إذ يدخل الاطمئنان في القلب، ويصل بالإنسان إلى مرحلة التدبر والتفكر والصبر على البلاء والمصائب.

5-المخطوطات:

ترتبط المخطوطات بالتراث العربي والإسلامي ارتبطًا وثيقًا، فهي تشكل جزءًا مهمًا من أقدم وأضخم تراثٍ حضاري إنساني عرفتْه البشريَّة، ومن هذا المنطلق اختار محمد علوان لروايته حبكة تسير وفق خطين، يتمثل الخط الأول في السيرة، بينما الآخر في سيرة المخطوط عبر الزمن، وبحسب علوان؛ أن سيرة المخطوط عمل متخيل تماما ولا وجود له، فلم يكتب ابن عربي سيرته، أو لم يصلنا مخطوط هكذا، بل أن الكثير من مخطوطاته فقدت، وكثيرة أيضا وضعت باسمه ولم يكتبها هو، والحق لا يمكننا أن نجزم ما قاله علوان، لأن هناك الكثير من الكتب عن ابن عربي وسيرة رحلاته في التصوف، في حين أن كتاب "الفتوحات المكية" من أهم كتب ابن عربي في التصوف كتبها في بداية أمرهِ ويتضمن إشارات وشفرات حول سيرة ابن عربي.

وبالعودة لسيرة المخطوط، فهي تبدأ منذ 1212م وتنتهي 2012م، أي ما يقارب 800 عام، مقسمة ومعنون كل قسم بالمكان والتاريخ، ينطلق المخطوط في حلب 646هـ/1248م، ويبقى فيها حتى 657هـ/1259م، ثم ينتقل المخطوط إلى دمشق 658هـ/1260م، ليصل فيما بعد إلى كرك 708 هـ / 1309م ، ثم سمرقند 804 هـ / 1401م، ثم أماسيا 811هـ/1409م، وبعد جولات وصولات يصل المخطوط إلى إسطنبول 1022هـ/ 1617م، لينتقل من جديد إلى دمشق 1344 هـ / 1925م ، ومن ثم إلى حماة 1402هـ/1982م، ثم تنتقل إلى بيروت وهي نهاية المحطة 1433هـ /2012م، على يد شاب سوري لاجئ يقيم في بيروت، وخلال رحلة المخطوط يستعرض علوان أحداث تاريخية مهمة عاشتها بعض البلاد في أكثر من زمان، منها تدمير هولاكو لحلب، وزمن الظاهر بيبرس في الكرك، وزمن الامبراطورية العثمانية، والاحتلال الفرنسي لدمشق وحتى أحداث 1982 في حماة السورية.

ويمكن القول إن هدف علوان لم يكن التطرق إلى سيرة المخطوط فحسب، بل تسليط الضوء على أهم الأحداث التاريخية التي وقعت آنذاك، فانتقال المخطوط من سوريا إلى العراق ثم إسطنبول، ثم العودة إلى سوريا وبقائه فيها لفترة زمنية تخللت خلالها عدة أحداث تاريخية مهمة، إلى أن استقر في بيروت عام 2012، يبين مدى حرص علوان على نقل التراث العربي والإسلامي، وماكانت تشهدها هذه الدول من ثراء حضاري وثقافي جعلتها محط أنظار وأطماع الغرب.

6- أسماء الشخصيات :

غاصت الرواية في تفاصيل ابن عربي منذ الولادة ونشأته، ويوميات عائلته، وأصدقائه، وشيوخه، وحتى قلقه وغرامه وخوفه وانحرافه، ما استوعبت الرواية حكايات وشخوص عدة ارتبطوا بحياة ابن عربي، بدءً من والده ووالدته وشقيقتيه، وأصدقائه في أشبيلة لا سيّما الحصّار والخياط والحريري، ثم تنقله بين جلسات العلم وتلقيه الدروس من

جهابذة العلماء في عصره، وعلاقته بالشيخ زاهر الأصفهاني وابنته نظام، وما تسبب به كتابه "ترجمان الأشواق" من معاناة اجتماعية لعائلة الأصفهاني،[31]، فعند إقامته في دمشق تأتيه رسالة من والد نظام (المتوفى عام 1212 في حين أن عام نظم الديوان هو 1214)، يعاتبه فيها على ذكر اسم ابنته في قصائد الديوان وكيف أن ذلك لحق بِهِ العار فاضطُر الهجرة إلى بغداد مع نظام، وفي أكثر من قصيدة في ترجمان الأشواق يشير ابن عربي إلى نظام، التي كانت آنذاك تقيم ببغداد بعد موت والدها وعمتها،اذ سكنت في بيت مخصص للنساء العازبات المتفرغات للعبادة، وهذا ما يؤكد أن قصائد الديوان كتبت خلال فترة إقامته في دمشق[32].

واستعان علوان ببعض الشخصيات المهمة في التاريخ، كالفيلسوف "ابن رشد"[33]، والخليفة "أبو يوسف المنصور"، وعلامة الشيخ "شعيب بن الحسن"[34]، و"شمس التبريزي"،وغيرهم، وأدهش القراء في منح كل شخصية ما تستحق من وصف وما تستدعيه مكانتها وفق مقتضيات عالم التصوف، ومن أبرز تلك الشخصيات شخصيتي "بدر" و"سودكين" وهما اللذان انضما لخدمة ابن عربي، ومرافقة بدر له في معظم رحلاته، بعد خادمه سلوم الذي صحبه منذ طفولته حتى عاد بصحبة زوجة ابن عربي عندما قررت العودة من مكة إلى بجاية، عقب وفاة ابنتهما زينب خلال رحلتها إلى مكة.

إلى جانب ذلك وقف علوان عند بعض الأسماء التي ترمز إلى الشخصيات التاريخية المهمة في بناء الحضارة العربية الإسلامية، أهمها "عثمان أفندي" أمين مكتبة السلطان أحمد أرطغرل، و "عبد القادر الجزائري" و"أبي الفداء" و"أبي حاتم"، فضلًا عن ذكر أسماء شخصيات مجهولة الهويّة واللقب، مثل الشاب الذي أوصل المخطوط إلى مدير المتحف الحربي في دمشق بعد أحداث حماة الشهيرة في العام 1982، ثم انتحر بعد ذلك، والدكتورة اللبنانية المقيمة في باريس التي اشترت المخطوط من الشاب السوري اللاجئ في بيروت عام 2012.

ويمكن القول إن وصف علوان لتفاصيل رحلة ابن عربي، يجعل القارئ يعيش أحداث الرواية، ويتماهى مع شخصياتها، بل ويمر من طرقات سفره المكون من اثني عشر سفرا، ويتعرف إلى الأحداث الراهنة في تلك الحقبة التاريخية، في حين يتعرف إلى عادات وموروثات وتقاليد البلدان التي مر بها ابن عربي خلال رحلته التي لم تخلُ من الصعوبات والصراعات والنزاعات التي كانت تقع آنذاك!

6-صورة المرأة:

أدت المرأة دوراً جوهريا في رواية "موت صغير"، وقد أبدع علوان في رسم الشخصيات النسائية، ومدى إسهاماتهن في الأحداث التي عاشها ابن عربي، وتأتي صورة المرأة في الرواية من خلال شخصية "فاطمة" التي طرحت فكرة "طهر قلبك"[35] على ابن عربي، وعمته الزاهدة المسنة، ليؤكد على مقولته "كل مكانٍ لا يؤنّث لا يعول عليه"[36]، إذ ذكر علاقته بأمه وزوجته مريم وعمته، وعلاقته بنظام ابنه الأصفهاني وغيرهن من النساء، فقد لقب أمه بـ" أم ترابية" التي أنجبته، بينما منح فاطمة التي مسحت عن جبين أمه عرق الولادة وعلمته التصوف بـ "أم روحانية" [37]، في دلالة واضحة على مكانة المرأة عند ابن عربي الذي كان يراها مساوية مع الرجل في الحقوق والواجبات، بل وفضلها عليه في بعض المواطن وكان يصف وجودها بظهور الحقيقة فيقول:" إن في المرأة يكتمل ظهور الحقيقة"[38].

نجد أن علاقة ابن عربي الاجتماعية؛ كانت تتصل مباشرة بالمرأة،أمًا، وأختًا، وحبيبةً، وزوجةً، وبنتًا، ثم شيخةً له، وتلميذة أو مريدة، فلا نكاد نعثر في حديثه عن نفسه، ففي معظم مؤلفاته نجده يذكر أمه ويصفها دائمًا بـ "امرأة صالحة"، إلى جانب علاقته بأختيه وكان مسؤولا عنهما بعد وفاة والده، والمرأة التي أحبها حبًا عميقًا —سبق وتحدثنا عنها– وكان ذلك عندما سافر إلى مكة ، والتقى بالشيخ الأصفهاني، وكانت له ابنة شابة تدعى "نظام" فائقة الجمال ، وعلى قدر وافر من الذكاء، والعلم، وطيب الخصال، ومن أجلها كتب ابن عربي ديوانًا غزليًا كاملًا بعنوان "ترجمان الأشواق" تعبيرًا عن حبه الشديد لهذه الشابة التي خطفت روحه قبل قلبه، فقد كتب في مقدمة الديوان "فكل اسم اذكره في هذا الجزء فعنها أكنّي ، وكل دار أندبها فدارها أعني"[39]، فيما كان كثير الذكر لزوجته "مريم بنت عبدون" التي أنجبت له ابنة سمّاها "زينب"، وتوفيت وهي بعمر صغير، وقد ساعدته زوجته مريم تكريس حياته للفكر الصوفي، وقد وصفها ابن عربي بالعابدة التي انخرطت في الطريق الصوفي من طريق الرؤيا بالمنام، لذا ارتبط بها ارتباطا روحيًا وجسديًا، وأحبها بصدق، حتى أصبح لا يرى حياته الطيبة الغنية إلا معها.

كما وكان كثير الذكر لشيخته التي أفاد منها علمًا وثقافة وخلقًا وهي "فاطمة بنت المثنى"، التي كان يعود إليها في كل صغيرة وكبيرة، وكانت بمنزلة أمًا روحيًا له، وهي من جعلته يبحث عن أوتاده الأربعة من خلال مقولتها الشهيرة (طهر قلبك)[40]، وكان يرى فيها زهده، وعلمه، وثقافته، وكل حياته.

الخاتمة:

يتبين من هذه الدراسة؛ أن محمد علوان قدم محطات مهمة من التاريخ الإسلامي بروحه الشاعرة وعلى لسان البطل الرئيسي ففاز بذلك، ربما كانت هناك محاكمات حول روايته بحكم استنادها إلى التاريخ أو جزء منه، أو طريقة توظيفه للتراث إن كان مبنيًا على مقوماته الرئيسة أم لا! وسواء كان الأمر صحيحًا أم مشبوهًا، إلا أن علوان استطاع أن يُقدم رواية تاريخية متكئة على التاريخ الاجتماعي أولًا والسياسي ثانيًا، ولم يكتب تاريخًا مُجردًا فحسب! في حين اجتهد اجتهادًا كبيرًا في توظيف التراث الأدبي والفكري لشخصية "ابن عربي"، والحقبة التي عاش فيها، فكل المصادر التي اعتمد عليها وُظفت بطريقة صحيحة وبارعة، الأمر الذي يصعب على القارئ أن يجد أي تعارضات في التاريخ حين يقرأ الرواية ولو كانت متخيلة.

كما ونجح علوان في اختيار مفردات الرواية بعناية، فعكس بطريقة ما الزمن الذي تجري فيه؛ بحيث لا تكون حداثية أكثر من اللازم، ولا تراثية يستثقل القارئ قراءتها، إلى جانب ذلك قدرته في الانتقال بين العصور دون ضجر أو ملل، وهي ما أضافت جمالية للرواية التي احتوت على لغة جاءت متنوعة وعلى أكثر من مستوى.

ولكن ثمّة مآخذ على الرواية لا يمكن تجاهلها، هو عدم الإشارة إلى المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها في كتابة سيرة ابن عربي، إذ لم يذكر الكاتب المصادر التي استند إليها في كتابة الرواية، الأمر الذي يجعل القارئ يعيش حالة التشتت الفكري ما بين الحقيقة والخيال، والأمر الآخر هو إسناد صوت الراوي لابن عربي يشكل نقطة ضعف للرواية، فالملاحظ أن أغلب شخصيات الراوية تمارس دور الكومبارس، فالمستوى الأول (سيرة ابن عربي) بصوت ابن عربي نفسه،

والمستوى الثاني هو (سيرة السيرة)، أو (سيرة المخطوط عبر الزمن) بأصوات أخرى متعددة، وعلى الرغم من كل تلك الأصوات متعددة، إلا أن السارد الوحيد لهذه الرواية التي يصل عدد صفحاتها ما يقارب ستمائة صفحة، يبقى "ابن عربي"!.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع

القرآن الكريم

-ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مجلد 2، 1992.

-الفيروز آبادي، مجد الدين محمد، القاموس المحيط، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2015.

-الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار عواد معروف وآخر، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، 1994.

-علوان، محمد، موت صغير، دار الساقي، بيروت، 2016.

-أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر، ج4، 1420ه.

-ابن عربي؛ محيي الدين بن علي، ديوان ترجمان الأشواق، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، 2005.

-إبراهيم، رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، تقديم: محمود فهمي حجازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2002.

-الفاسي؛ أحمد بن زرّوق، قواعد التصوف، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2005.

-حنفي، حسن، التراث والتجديد، موقف من التراث القديم، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة ، 2019.

ثانيًا: المجلات والمواقع الإلكترونية

- القاسمي؛ علي، "معركة تجديد التراث و الأصالة والمعاصرة ما زالت مستمرة"، ورقة عمل مقدمة في مؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية ،دمشق، 2009.

-التويجري؛ عبد العزيز، التراث والهويّة، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- ايسيسكو، المغرب، 2011.

-بنسعيد؛ مها، حكاية متخيلة عن ابن عربي، مجلة نزوي، العدد (94)، عُمان، 2018.

-الجانبي؛ قيس كاظم، رواية موت صغير لمحمد حسن علوان، من الكشف إلى العلامة ورحلات إبن عربي، مجلة الزمان الإلكترونية، العراق، 2017.

-عويس، عبدالحليم، التراث والمرجعية الإسلامية بين النقل والعقل، شبكة الألوكة، تاريخ المشاهدة: 18/ يناير/2023، http://www.alukah.net/web/aweys/0/47566/

-عادل، إبراهيم، موت صغير: عن حياة إمام المتصوفة "ابن عربي"، موقع إضاءات، تاريخ نشر المقال أكتوبر/ 2016، تاريخ المشاهدة :13/ فبراير/2023.

(ida2at.com) موت صغير: عن حياة إمام المتصوفة «ابن عربي» – إضاءات

[1] **حنفي، حسن، التراث والتجديد، موقف من التراث القديم، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة ، 2019، ص22.**

[2] **ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مجلد 2، 1992، ص 199-201.**

[3] **الفيروز آبادي، مجد الدين محمد، القاموس المحيط، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2015، ص117.**

[4] سورة الفجر/ 19.

[5] الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار عواد معروف وآخر، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، 1994، 520/7، (الأحقاف-الناس).

[6] القاسمي؛ علي، "معركة تجديد التراث و الأصالة والمعاصرة ما زالت مستمرة"، ورقة عمل مقدمة في مؤتمر السنوي الثامن لمجمع اللغة العربية ،دمشق، 2009.

[7] التويجري؛ عبد العزيز، التراث والهويّة، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- ايسيسكو، المغرب، 2011، ص13 .

[8] عويس، عبدالحليم، التراث والمرجعية الإسلامية بين النقل والعقل، شبكة الألوكة، تاريخ المشاهدة: 18/ يناير/2023، http://www.alukah.net/web/aweys/0/47566/

[9] بنسعيد؛ مها، حكاية متخيلة عن ابن عربي، مجلة نزوي، العدد (94)، عُمان، 2018، ص299.

[10] علوان، محمد، موت صغير، دار الساقي، بيروت، 2016، ص7.

[11] الرواية، ص591.

[12] أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر، ج4، 1420 هـ، ص 210.

[13] الرواية، ص10.

[14] عادل، إبراهيم، موت صغير: عن حياة إمام المتصوفة "ابن عربي"، موقع إضاءات، تاريخ نشر المقال أكتوبر/ 2016، تاريخ المشاهدة :13/ فبراير/2023.

موت صغير: عن حياة إمام المتصوفة «ابن عربي» – إضاءات(ida2at.com)

[15] الرواية، ص17.

[16] ينظر:إبراهيم، رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، تقديم: محمود فهمي حجازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2002، ص306.

[17] ينظر: المرجع نفسه، ص402.

[18] الرواية، ص30.

[19] الرواية، ص39.

[20] الرواية، ص 111.

[21] الجانبي؛ قيس كاظم، رواية موت صغير لمحمد حسن علوان، من الكشف إلى العلامة ورحلات إبن عربي، مجلة الزمان الإلكترونية، العراق، 2017.

[22] المرجع السابق.

[23] الفاسي؛ أحمد بن زرّوق، قواعد التصوف، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2005، ص24.

[24] الرواية، ص359.

[25] الرواية، ص429.

[26] الرواية، ص80.

[27] الرواية، ص80.

[28] الرواية، ص139، سورة الكوثر الآية /1، سورة الرحمن الآية/ 64.

[29] الرواية، ص 207، سورة النمل الآية/37.

[30] الرواية، ص 307، سورة الحديد الآية/ 23.

[31] ينظر، الرواية، ص 312، ص313، ص314.

[32] ينظر: الرواية، ص372، ص373.

[33] الرواية ، ص123.

[34] الرواية، ص217.

[35] ينظر: الرواية، ص14.

[36] الرواية، ص89.

[37] ينظر: الرواية، ص14.

[38] الرواية، ص162.

[39] ابن عربي؛ محي الدين بن علي، ديوان ترجمان الأشواق، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، 2005، ص24.

[40] ينظر: الرواية، ص14.